BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

منتدى الحوار

Dialogue Forum

(DF)

الشخصية المصرية والتراث الشعبـــي

محمد زكريا عناني:

نرحب بكم في منتدى الحوار بمكتبة الإسكندرية، ونرحب بالأستاذ الدكتور أحمد مرسي الذي يشرفنا اليوم، كان الدكتور أحمد مرسي من أوائل خريجي كلية الآداب جامعة القاهرة، وقد شق طريقه معيدًا ثم مدرسًا ثم أستاذًا ثم رئيسًا لقسم اللغة العربية بالكلية، هذه هي السطور التي تطل عليّ من السيرة الذاتية، ثم أعرف بعد ذلك أنه تولى رئاسة دار الكتب والوثائق القومية فأدارها بأقصى درجة من درجات الاقتدار، ونعرف أيضًا أنه رئيس تحرير مجلة الفنون الشعبية وهي إحدى الإبداعات الحقيقية التي عندما أرى عددًا منها أندهش أن هناك أعدادًا لم توزَّع لأن المجلة بثراء محتواها وسعرها الرمزي من المفروض أنها تدفع إلى الاقتناء فورًا وبمجرد صدورها.

والدكتور أحمد مرسي حاصل على جائزة الدولة للتفوق ثم جائزة الدولة التقديرية وأيضًا وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى. وقد رأس المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، كما كان مستشارًا لبلاده ورئيسًا لتحرير مجلة علمية ذات شأن، وكان هناك همزة الوصل الحقيقية بين المشرق والمغرب.

إن العشق الأول للدكتور أحمد مرسي هو الأدب الشعبي، وهذا النوع من الأدب يُعد ظاهرة غريبة في تراثنا، فلو نظرنا فيما كُتب في المدونات القديمة عن الأدب الشعبي، لن نجد إلا النـــزر اليسير. كتاب يسجل الأعمال مثل كتاب الفهرس لابن النديم، لم نجد فيه سطورًا ثلاثة عن الأدب الشعبي، لكن يطل العصر الحديث، ويظهر رجال رائعون أكتفي بأن أذكر منهم أحمد باشا تيمور

والذي يجمع الأمثال الشعبية ونصوص خيال الظل، أذكر أيضًا بدهشة وإعجاب لا حد له اسم الأستاذ الكبير الدكتور أحمد أمين عميد كلية الآداب جامعة القاهرة والذي أصدر ما أصدر من موسوعات وحقق ما حقق من كتب، لكن يبقى عمله الذي يعد بمثابة جوهرة أعماله قاموس العادات والتقاليد والتعابير.

وأسجل أسماءً أخرى كثيرة مثل الأساتذة الدكتور عبد العزيز الأهواني والدكتور عبد الحميد يونس وغيرهما، لكن الاسم الحي الجياش بالعطاء وبالإحساس بالمصرية وبالتراث هو ذلك الاسم الجميل للدكتور أحمد مرسي والذي لا أعرف سوى القول بأنني سعيد بإدارة هذه الندوة التي سيحدثنا فيها عن مزاوجة بين رحلته هو في طريق الحياة وبين همومه وأشجانه واتصاله وعشقه، وأستعير من الزجال الأندلسي الشهير ابن قزمان عندما شغل ديوانه الجميل "صوت الشارع" بما أسماه "الشواغي"، كأننا جئنا إلى هذه الأمسية لكي نستمع من هذا الضيف الرائع، والذي لا نعده ضيفًا لأنه متغلغل في كل شبر من مصر.

أحمد مرسي:

أسعد الله مساءكم بكل الخير، والشكر للحضور الذي تجشم مشقة المجيء لنتحاور معًا حول موضوع محبب إلى قلبي، وهو المتصل بمأثوراتنا الشعبية أو تراثنا الشعبي. والشكر لمكتبة الإسكندرية على هذه الدعوة الكريمة التي شرفني بها أهل هذه المكتبة، والتي أرجو ألا أخيب ظنهم وألا تكون دعوتهم لمجرد الاسم ولكن للموضوع. أما الصديق العزيز الأستاذ الدكتور محمد زكريا عناني، فأنا لا أستطيع أن أجاريه بلاغة ودماثة وأدبًا عندما قدمني، فقد تعلمت منه الكثير، خاصة فيما يتصل بالثقافة الأندلسية وبتراثنا العربي في الأندلس، وكتابه عن الموشحات الأندلسية يعد أحد الكتب العُمُد في هذا المجال. والحقيقة، إنني نصف سكندريّ نصف قاهري، فقد كنت طالبـــًا في السنة الأولى في كلية الآداب جامعة الإسكندرية، وشرفت بالتتلمذ على مجموعة من الأساتذة رحمهم الله وغفر لهم وجزاهم أحسن الجزاء عمَّا علمونا إياه، ومنهم أساتذتي المرحوم الدكتور محمد حسين، والمرحوم الدكتور محمد خلف الله أحمد، والمرحوم الدكتور السيد مصطفى غازي، والدكتور بخاطره الشافعي، والدكتور طه الحاجري، والدكتور العشماوي. إن لي في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية رحمًا، والعلم رحمٌ بين أهله، ومن ثم فإنني أنتمي أيضًا إلى هذه الكلية، ويشرفني أن أكون أحد أبناء هذه الكلية وهذه الجامعة العريقة التي تتلمذت فيها على أساتذة أجلاء علموني ومازلت أذكر فضلهم في ذاكرتي وفي وعيي بعد طول سنين.

واسمحوا لي ألا ألقي محاضرة، فقد أصبح عندي حساسية شديدة من المحاضرات، وأفضل أن يكون حوارًا وخصوصًا أننا تحت مظلة منتدى الحوار، فاسمحوا لي أن أعرض عليكم بعض الأفكار والنظرات التي قد يرى البعض ضرورة أن نتحاور حولها أو أن نتحدث عنها، لأن هذا أكثر حيوية من أن يكون الحديث ذا اتجاه واحد، خاصة أنني جئت لكي أتعلم وأستفيد، ولا أقول هذا تواضعًا لأنني لا أحب التواضع الكاذب لأنه شكل من أشكال الغرور المقنـــَّع، ولكن الأمر هو أن الذين يعملون في الجامعة يعلمون أن الأستاذ الذي لا يتعلم من طلابه ليس جديرًا بأن يكون أستاذًا، فما بال هذا الأستاذ إذا لم يتعلم من أساتذته ومن زملائه ومن أقرانه وممن يختلفون معه حتى في الرأي وفي النظر، لأن هذا يعني أن يعيد النظر مرة أخرى فيما قد يكون قد استقر لديه وبالتالي فإنه لا شك في أنه سيستفيد فائدة كبيرة.

سأفترض أن البعض لا يعرف ما المقصود بالتراث الشعبي أو بالمأثورات الشعبية، وهناك مصطلحات كثيرة تُستخدم في الساحة أكثرها خطأ وأقلها صواب. فقد شاع في المصطلحات الثقافية والإعلامية خلال السنوات السابقة مصطلح الفنون الشعبية للدلالة على ما كان يدل عليه المصطلح الأنجلو ساكسوني وهو مصطلح "فولكلور"، وقد تُرجم للأسف الشديد ترجمة خاطئة وهي "الفنون الشعبية". وزاد الخطأ عندما لُخصت الفنون الشعبية كلها في الرقص والغناء، و لم يعد هناك من يسمع كلمة الفنون الشعبية إلا ويتبادر إلى ذهنه فرقة رضا للرقص الشعبي والفرقة القومية للفنون الشعبية أو فرق المحافظات للفنون الشعبية، واختُصر المأثور الشعبي في هذا الجزء البسيط جدًّا ممَّا يسمى التراث الشعبي أو المأثورات الشعبية. لكن، من المصطلحات التي نجح مجمع اللغة العربية نجاحًا باهرًا في أن يجد مقابلاً لها في اللغة العربية – وإن كان قد تأخر كثيرًا – عندما توصل إلى أن يُترجم مصطلح "الفولكلور" بالمأثورات الشعبية. وللأسف الشديد، كان قد ساد مصطلح الفنون الشعبية سيادة هائلة بحيث أصبح المصطلح العلمي الدقيق وهو المأثورات الشعبية مصطلحًا ثقيلاً على الأذن وغير مقبول ويحتاج إلى شرح وتوضيح. لكن لا بأس من أن نركز على هذا المصطلح لكي نؤكده، على الأقل في الاستخدام العلمي أو في مجال نتحدث فيه إلى مجموعة من الصفوة، وبالتالي ربما ننجح في أن يسود هذا المصطلح. وقد ساد إلى جانب هذا المصطلح مصطلح آخر أكثر علمية وإن كان لا يفي بالغرض وهو مصطلح "التراث الشعبي"، ولهذا المصطلح جاذبية خاصة في ثقافتنا، ونحن نكنُّ له احترامًا كبيرًا بغض النظر عما يحتويه هذا التراث من غث أو ثمين، لكن المصطلح في حد ذاته يحمل دلالة إيجابية، وعلى حسب التعبير القرآني ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَّمًّا﴾ فإن التراث ينصرف إلى الصورة المادية، وفي الأصل العربي تميل هذه الكلمة إلى التأكيد على معنى "الشيء المادي الموروث"، ومن هنا، ينبغي أن نحيي مجمع اللغة العربية على توصله لهذا المصطلح وإن كان قليل الحظ، فالمأثور هو جزء الماضي

الذي يؤثر في الحاضر وقد يستمر إلى المستقبل، مثل قولنا مثلاً "من جد وجد"، فهذه المقولة ليست نتاج اليوم ولكنها حكمة قديمة مستمرة ومؤثرة وستظل مؤثرة، لأنها من مأثور القول.

وهناك أيضًا مصطلحات أخرى للأسف الشديد شابها قدر من الخطأ، فقد تمت ترجمة مصطلحيْ traditions وtraditional بكلمتي "تقاليد" و"تقليدي"، لكن تكون الترجمة صحيحة حسب السياق، فعندما نقول مبنى تقليدي فهذا معناه أنه مبنى استقر على حاله لا يتغير وفي هذه الحالة تكون هناك دلالة إيجابية للمعنى لأنه يفوح بعبق الماضي وله جماله الخاص. لكن عندما نستخدم مصطلح "تقليدي" لوصف الفكر على سبيل المثال فسوف تكون الدلالة سلبية، ومن ثمَّ فإنه من الأفضل ترجمتها في هذا السياق بالفكر المأثور أو الثقافة المأثورة وليس الثقافة التقليدية لأن التقليدية تعني المتحجرة، أما المأثورة فإن معناها أنها مازالت تتردد ولها فاعليتها ومازالت تتميز بما يمكن رصده والتعامل معه.

ومن هذا المنطلق، سوف نستخدم في هذا السياق مصطلح "المأثورات الشعبية" كترجمة للمصطلح الأنجلو ساكسوني Folklore، وكلمة Folk تعني شعب أما كلمة lore فقد حيرت البشرية، فهناك من ترجمها في البداية بالحكمة وهناك من ترجمها بمعارف وهناك ترجمات كثيرة لن نخوض في تفاصيلها، المهم أننا سنستخدم مصطلح "المأثورات الشعبية" للدلالة على الموضوع الذي سنتحدث فيه اليوم، فالمأثورات الشعبية هي الفنون بأشكالها سواء كانت قولية أو مرئية أو مادية، وكذلك العادات والمعتقدات والمعارف التي تعبر بها جماعة عن نفسها من خلال فرد أو مجموعة أفراد وأنماط السلوك الجمعية. قد يستخدم الإنسان الكلمة فينتج الأدب الشعبي من حكايات وأمثال ونوادر وفوازير ومواويل وسير شعبية، أو قد يستخدم الحركة فينتج الرقص الشعبي، أو قد يستخدم النغمة لينتج الموسيقى الشعبية، أو قد يستخدم الخط واللون وتشكيل المادة لينتج ما اصطُلح على تسميته بالصناعات والحِرَف الشعبية. هذا هو مجال المأثورات الشعبية. وكلنا نعرف أن مصر ذات حضارة عميقة وتراث موصول، لكننا سنحاول معًا أن نتلمس بعض معالم الشخصية المصرية من خلال المأثورات الشعبية التي يعبر بها الإنسان المصري عن حاله. والإنسان المصري هنا ليس فردًا، لكنه فرد يعبر عن جماعة، ولكي نسهل الأمر، فإن الفيصل في التمييز بين ما هو شعبي وبين ما هو فردي يتجلى في كون الشعبي يعبر عن وجدان جمعيّ وعن رؤيةٍ فردية وعن موقف جمعيّ، ولا يعبر عن رؤية جمعية أو موقف فرديّ أيًّا كانت الأشكال أو الأدوات التي يستخدمها من كلمة أو حركة أو إيقاع أو تشكيل للمادة وغير ذلك. وحتى لا يكون الكلام جافًا، سوف أسرد لكم موالاً وسوف نرى ما إذا كنا سنتفق على أن ما يحمله هذا الموال من مضمون يعبر عن قيمة جمعية أو قيمة فردية، يقول الموال:

الصاحب اللِّي يفوتك يَجنَّن (بمعنى أيقن أو اعتبر) إنه مات
اترك سبيله ولا تندم على اللي فات
الصجر (الصقر) بيطير وبيعللي وله همات
يجعد (يقعد) في الجو عام ولا اتنين
يموت من الجوع ولا يحوِّد على الرمات

وهذا الموال البليغ يصور قيمًا رفيعة في الإباء والاعتزاز بالنفس والكبرياء بخلاف ما يتصور البعض أن ما يوصف بالشعبية للأسف الشديد هو المبتذل والرخيص والتافه الذي لا معنى له، هناك موال آخر سوف نلاحظ فيه الفروق الدقيقة في استخدام الكلمات، وهذا الموال كأنه يرد على الموال الأول:

الصاحب اللي تزعل منه يجنَّن (أيقن – اعتبر) إنه مُر
اترك سبيله وابجى ليَمُّه (عُد إليه مرة أخرى) مُرّ
وغيب عنه عام ولا اتنين وارجع عليه مُرّ
والله إن لقيته (وجدته) على عهده الجديم مأصَّل (أصيلاً) حُر
اخلع العين وحُطُّه مطرح الحبة
والله الرِفيق الموافق (الصديق الصدوق) بينفع في النهار المُر

أظن أنه لا أحد من المصريين يسمع هذين الموالين ويقول إنه لا يتفق مع مضمونهما، لأنهما يعبران عن قيمة سلوكية مرتبطة برموز جمعية استقر عليها المجتمع وارتضتها عليه الجماعة وأكدتها الثقافة، و لم تؤكدها الثقافة فقط باعتبارها كلامًا، ولكن باعتبارها سلوكًا، بمعنى أن المجتمع يعلي من شأن الرجال الصقور ولا يعلي من شأن الحدءات ولا البوم، لأن كل طائر من هذه الطيور له رمز في الثقافة الإنسانية بوجه عام وفي الثقافة المصرية بوجه خاص. هذا الموالان يعدان نموذجًا للتراث الجمعي، وسأضرب الآن نموذجًا فرديًّا، وسأستخدمه من التراث العربي، عندما يقول شاعر من الشعراء:

عشقتها شمطاء شاب وليدها وللناس فيما يعشقون مذاهب

هنا تبرز حرية الشاعر الفردية في عشق امرأة قبيحة، فهذه حريته الشخصية وليست سمةً عامة يجتمع عليها كل الناس.

يوجد مثال آخر من الشعر الغنائي الحديث، وعلى الرغم من كونه حالة فردية، إلا أن الناس قد اعتادوا على سماعه وفهمه وفقًا لمفهومهم الشخصيّ وليس وفقًا للمعنى الذي أراد الشاعر إيصاله، فهناك أغنية شهيرة تقول:

علشان الشوك اللي في الورد بحب الورد وأتمنى جرحه وتعذيبه

والغريب أن الناس جميعًا قد سمعوا هذا النص وفهموه على أن من يحب الورد يتحمل شوكه، لأن هذا هو الأمر الطبيعي، وأنه لابد للشهد من إبر النحل بمعنى أن من يريد الحصول على الشهد فلابد أن يتحمل لسع النحل وبالتالي من يريد الورد لابد أن يتحمل الشوك، لكن هذا الشاعر يقول إنه يحب الورد لا لشيء إلا لأن به شوكًا، ويتمنى جرحه وتعذيبه، فهنا يختلف الأمر، لكن صوت المغني واللحن لم يجعلنا نشعر بهذا المعنى، وبالتالي فإن هذا النص يستحيل بأي حال من الأحوال أن يكون شعبيًّا، لأنه يعبر عن موقف فردي لإنسان لا يرى في الورد لونًا ولا رائحة ولا ارتباطًا بمشاعر إنسانية جميلة، ولكنه يعبر بالنسبة له عن الجرح والتعذيب، وهو أمر لا يمكن أن يشكِّل لا رؤية جمعية ولا موقفًا جمعيًا ولا مشاعر جمعية.

بهذا الشكل يتضح لدينا ما نقصده بالشعبي من كونه يعبر عن رؤية وموقف جمعي ويختلف عن الفردي الذي يعبر عن رؤية وموقف فردي، ومن حق كل فنان أن يعبر كما يشاء ولا قيد على أحد، لكن لكي يُنسب أي شيء إلى الشعبية فهناك مجموعة من الضوابط التي لابد أن تتحقق، وهي أن يكون هذا التعبير تعبيرًا عن رؤية جمعية وموقف جمعيّ، فهذا شرط أساسي.

الجزء الآخر الذي أريد أن أتحدث عنه مرتبط ببعض معالم الشخصية المصرية كما تتضح من خلال المأثور الشعبي الذي هو تعبير تلقائي، وتلقائي هنا لا تعني المعنى الحرفي للتلقائية لأنها في حالة المأثور الشعبي يسبقها فكر واختزان متعدد المراحل، ثم يبدو هذا في شكل مثل شعبي أو أغنية إلى آخره. والشخصية المصرية تبدو مُحيِّرة، ونحن مغرمون بالتعميم، فنقول مثلاً إن المصريين شعب طيب، والسؤال هو: ماذا يعني أننا شعب طيب؟ وهل هناك شعب طيب وشعب شرير؟ يُقال أيضًا إن المصريين كرماء، والسؤال هو: هل هناك شعب كله من الكرماء وشعب آخر كله من البخلاء؟ مثل هذه الأحكام العامة قد تكون مقبولة لدى العامة وفي الأحاديث التي نريد بها أن نرفع من شأن أنفسنا أو أن نتحدث عن أنفسنا بشكل إيجابي، لكن لا توجد شخصية ثابتة، ... الشخصية نتاج وسط

تتحرك فيه، وهذا الوسط هو مجموعة من العلاقات الاقتصادية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وهذه الشخصية في البداية والنهاية نتاج أمرين غاية في الأهمية: أولاً الواقع المادي الذي تعيش فيه خاصة أننا نتحدث هنا عن شخصية جمعية وليس عن شخصية فردية، وثانيًا وعي هذه الشخصية بالعلاقات الاجتماعية التي تتكون من خلال تفاعل هذه الشخصية (الإنسان/الجماعة) مع الواقع المادي الذي تتعامل معه.

ولا أستطيع أن أتحدث في هذه الندوة عن كل تفاصيل الموضوع وإلا استغرق الأمر أيامًا طويلة، إلا أن ما أريد التركيز عليه يتعلق بضرورة أن نعرف أنفسنا بشكل علمي، وألا نقيس أنفسنا على غيرنا. وكثيرًا ما نسمع عن مقارنة بين الإنسان المصري وغيره من البشر الأمريكيين أو الفرنسيين أو الأفارقة، أو أن نظن أن كل ما يصدُق على دول العالم الثالث يصدُق بالضرورة علينا دون معرفة حقيقية بالمكونات التاريخية –وهو أمر أساسي– والتي تفعل فعلها في تكوين هذه الشخصيات. إن المكونات أو العناصر التاريخية بتفاصيلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ذات أهمية كبيرة، ولذلك يجب التأمل فيما نعرفه حتى نستطيع من خلاله أن نتلمس مجموعة من الأفكار التي تفسر لنا ما نحن عليه سواء بالسلب أو بالإيجاب لأن هناك عناصر إيجابية كثيرة لكننا قد نرى في الوقت الحالي أن هذه العناصر بدأت تتنحى عن موقعها ويصيبها قدر من الضمور ولكل أسبابه. وكما ذكرت، فإن هذه الشخصية لا تعيش في فراغ، ولكنها تتأثر بالواقع الذي تعيش فيه من حيث كونه واقعًا ماديًّا أو علاقات أو ما إلى ذلك.

كان اكتشاف الإنسان المصري للزراعة يعد ثورة بكل المعايير وبكل المقاييس، لأن هذا أثّر عليه بشكل كبير جدًّا، فقد انتقل من مرحلة إلى مرحلة واستقر بعد اكتشافه الزراعة، وقد ساعده استقراره على اكتشاف أن هناك ما يسمى بالأسرة، وأنه يستحيل أن يستطيع ممارسة الزراعة ما لم يتعاون مع غيره، وأول درجات هذا التعاون كان تكوينه لأسرة لكي تكون هناك أولاً زوجة تساعده ثم ينجب أبناءً ليساعدوه على أن يروِّض الأرض، ولم يكن هذا أمرًا سهلاً ولا بسيطًا ولا هيِّنًا. وقد انعكست هذه الاكتشافات على نظرة أفراد الأسرة بعضهم إلى بعض، أي نظرة الرجل إلى المرأة والعكس، ونظرهما معًا للأبناء والعكس، وهذا ما تكشف عنه مأثوراتنا الموجودة إلى الآن فيما يختص بعلاقة المرأة بالرجل والأبناء بالآباء، ومن الأشياء المذهلة أنه في التراث المصري تتساوى المرأة مع الرجل ويتساوى الرجل مع المرأة، فإذا تأملنا الرسوم القديمة فلا نجد الرجل أكبر ولا أعلى في حجمه، بل إنهما متساويان في الحجم والأطفال بين أرجلهما معًا لصغر حجمهم، بحيث يكونان معًا كتلة رائعة تمثل رؤية هذا الإنسان منذ بداية الحضارة إلى نفسه وزوجه وأولاده. بل إن هناك بعض التماثيل

تضع المرأة فيها يدها على كتف الرجل وليس العكس، مع أنه من المفترض أن الرجل هو الحامي وهو القوي، إلا أن الثقافة المصرية آمنت بأن المرأة هي من تحمي الرجل، وهناك مثل شعبي مصري يقول: **إذا كان الراجل بحر تُبجى (تكون) المرة جسر** ، والجسر هنا ليس المقصود به الكوبري، بل الضفتين اللتين تمثلان الشاطئ، كما أن كلمة البحر في هذا السياق تشير إلى الترعة لأن المصريين يطلقون على النيل وأفرعه اسم "البحر"، ولو تأملنا هذا المثل البسيط وتساءلنا: من الذي يحدد المسار؟ إن ما يحدد مسار المياه هي الضفاف، وهي التي تمنع فيضان المياه خارج مسارها، بمعنى أن المرأة هي التي تحفظ للرجل كيانه. وفي إطار الأسرة، تتأكد العلاقة بين الأخ والأخت، وهي علاقة متميزة جدًّا في الثقافة المصرية ولا تزال تنعكس في سلوكنا سواء على مستوى المثقفين والمتعلمين أو على مستوى الإنسان العادي. وعندما يريد أحدنا أن يرفع من شأن امرأة أو فتاة لا نستخدم سوى كلمة واحدة تعني الأمان والأمن والاحترام وأننا لا يمكننا أن نمسها بسوء أو ننظر إليها نظرة غير محترمة، هذه الكلمة هي "أنت مثل أختي"، وبالمثل تقول المرأة للرجل الذي تكن له احترامًا "أنت مثل أخي"، والمرأة في المجتمع الشعبي لا تخاطب زوجها باسمه بل تقول له عادةً "يا خويا" أو يا بو فلان (اسم الابن الأكبر) وبالمثل يفعل الرجل، فهو عادة ما يخاطبها بقوله "ياختي .." وعندما ترثي المرأة رجلاً قريبًا منها مات من أسرتها سواء كان أبًا أو أخًا أو زوجًا أو ابنًا، فهي تستخدم في النداء عليه لفظ "يا خويا"، وعندما تصرخ وتندب لا تقول "يا زوجي" ولا "يا ابني" بل لا تقول سوى "يا خويا"، وإحدى المرثيات الشعبية تقول فيها المرأة:

يا خويا لو كنت أعرف إنك تروح ما تجيش (ترحل ولاتعود)
كنت أوجَّف لك على كل مورَدة شاويش (كنت أجعل لك عند كل موردة شاويش يمنعك من الرحيل)

والمورَدة هي المكان الذي كانت تذهب إليه الفتيات عادة ليملأن الجرار من الترعة، وهي توازي الناصية بالنسبة للمدينة وتشير أيضًا إلى ملتقى العشاق. وعندما تستقبل المرأة المصرية طفلاً من أطفال أقربائها أو أصدقائها فإنها تقول له "اسم الله عليك وعلى أختك قبل منَّك" أو "اسم الله عليكي وعلى أخوكي قبل منِّك"، وكأنه من الضروري أن يكون لكل طفل أخ أو أخت، وقصص الأخوين منتشرة في الثقافة المصرية بداية من إيزيس وأوزوريس. ومن يتصور أن الشخصية المصرية تفككت وتحللت مخطئ، فمازال هناك تيار من الوعي أو اللاوعي يتخلل سلوك الإنسان المصري للأسف الشديد نحن لا نرصده ولا نعرفه ولا ننمي الإيجابي منه. إن للإنسان المصري أسلوبًا يميزه في مواجهة ظروف الحياة التي تحيط به لأن إحساسنا بالمكان وبالزمان مختلف. وبالمناسبة، أنا ضد كل ما يُقال حول قياس الأمور على بعضها تقدمًا أو تخلفًا، وأنه حتى نكون متقدمين فإنه لابد أن نتصرف مثل

الأمريكيين أو الأستراليين أو غيرهم وإلا سنكون متخلفين، كل هذا خطأ، إننا نفعل ما يتسق مع نسقنا القِيَمي ومحيطنا وظروفنا المختلفة. وأود في هذا السياق ذكر المثل المصري "**إن كبر ابنك خاويه**" والذي يعود بنا إلى مفهوم المؤاخاة التي نعبر بها عن عمق العلاقة بيننا وبين الآخرين، ويقودنا هذا إلى سيرة الظاهر بيبرس وهي السيرة الوحيدة التي أقامها المصريون لشخص غير عربي، فعنترة عربي وأبو زيد الهلالي عربي وحمزة عربي إلا الظاهر بيبرس والسؤال هو لماذا صنع المصريون سيرة شعبية لهذه الشخصية و لم يصنعوها لقطز على سبيل المثال أو لصلاح الدين الأيوبي على الرغم من أن هذا الأخير يتميز بصورة مشرقة ورائعة كما كتب عنه المستشرقون ما لم يكتبوه عن غيره. والمدهش أن صورة الظاهر بيبرس التاريخية الرسمية سيئة للغاية. لقد نظر الشعب المصري إلى هؤلاء على أنهم كلهم مماليك، قطز، قايتباي، قلاوون وغيرهم، وفي هذا الشأن يصوغ الشعب المصري مثلاً عن تشابه الأصول عندما يقول في أحد أمثاله: "**قالوا ادخل الزريبة نجِّي (انتق) لك كلب جُلت (قلت) كلهم كلاب ولاد كلاب**"، ويصوغ مثلاً آخر "**قالوا الكلب الأبيض أحسن والاّ الكلب الأسود جُلت (قلت) كلهم كلاب ولاد كلاب**". إذن، فبالنسبة للمصري يتساوى الجميع عندما يتساوى الأصل، إلا أنه حدث فرق مع الظاهر بيبرس؛ فرغم كونه مملوكًا فقد اختاره الشعب المصري ليصوغ له سيرة باسمه. وفي هذه السيرة، يتنبأ الملك الصالح نجم الدين أيوب -الذي كان يلقَّب بوليّ الله المجذوب لأنه كان يستطيع أن يتنبأ بما سوف يحدث مستقبلاً- للظاهر بيبرس بأنه سيصبح والي مصر وبأنه لن يستقيم له حكمها إلا إذا تخلص من إنسان مصري شرير اسمه "عتمان بن الحِبلة"، ولنتأمل اسم هذا الشخص لأن له دلالة، فهو يشير إلى أن صاحبه من أحط الطبقات الدنيا، كما أنه مجهول الأب، وحتى والدته ليست معروفة ولا كنيتها أيضًا معروفة لدرجة أن نُسب إليها بوصفها "الحبلة" دون أن يكون لها اسم بعينه أو كنيته، ولا يوجد بعد هذا تشويه لشخص نتبينه من مجرد ذكر اسمه. وعلى أثر هذه النبوءة، يحاول الظاهر بيبرس في السيرة أن يظفر بهذا الشخص، ولكن هذا الشخص أتعب الظاهر بيبرس ودَرَكه ومماليكه دون أن يستطيع أحد هزيمته أو حتى اعتقاله، فلم يجد الظاهر بيبرس أمامه من سبيل إلا أن يؤاخيه، أي اتخذه أخًا وبهذه المؤاخاه انتصر الظاهر بيبرس، وأظن أن الأمر واضح شديد الوضوح. إننا نخرج من هذه السيرة بأن الحاكم عندما يلتقي مع أقل إنسان في شعبه ويحقق له العدل فإنه ينتصر في النهاية، أما إذا أدار ظهره لشعبه فإن الهزيمة قادمة لا محالة، وتقول السيرة إن عتمان بن الحِبلة يتحول بمؤاخاة الظاهر بيبرس له من الإنسان الشرير الحقير إلى إنسان خيِّر ونافع، وبالمناسبة، فإنه من المهم أن نشير إلى أنه في السير الشعبية يكون الخير مطلقًا والشر مطلقًا دون وسط بينهما. ولا عجب في هذا السياق عندما نعرف أنه أثناء حرب ١٩٧٣ لم تكن هناك حادثة سرقة واحدة، فهذا هو الشعب المصري عندما يتآلف مع حاكميه، والمشكلة هي أن نعرف كيف نستخرج من هذا الشعب خصائصه الأصيلة، وأقول ذلك على الرغم من أن الشخصية ليست ثابتة لكن هناك عوامل

تشكِّل مجرى لا ينقطع ... ربما يختفي أو يضمحل أو يتدهور حينًا، لكنه يعود للازدهار مرة أخرى تبعًا للعوامل المحيطة والواقع المحيط بسياقاته المتعددة.

إن تصورنا كمصريين للزمان والمكان يستدعي الانتباه، إن المصري في المقام الأول فلاح، ولا تزال الثقافة الزراعية مؤثرة علينا ونحن نرتدي أحدث ما أنتجته بيوت الأزياء أو نأكل أفضل ما توصلت إليه المطابخ الفرنسية والإيطالية، لكن ليس من السهل تغيير العناصر الأساسية للشخصية، كما أن هذه العناصر بالمناسبة ليست عائقًا عن التقدم أو التطور إذا كنا دارسين لهذه العناصر وقادرين على تلمس جوانبها المختلفة وعلى توجيهها الوجهة الصحيحة، وذلك لأن الشعوب لا تبتكر لذاتها ولا تنحدر لذاتها، بل لابد أن تكون هناك قيادة وأن يكون هناك من يُعنى بأن يعرف ما السلب وما الإيجاب قياسًا على الثقافة نفسها وليس على ثقافة أخرى. والمصري في أساس تكوينه فلاح، والمكان بالنسبة إليه واسع وفضفاض لوجوده طوال الوقت في الحقل، كما أن تقدير المسافات بالنسبة إليه يختلف عن تقديرها بالنسبة لساكن المدينة، ويطلق الفلاحون عادة على المسافات التي يقدرها أهل المدينة بأنها تمتد لكيلومترين أو ثلاثة على أنها "فركة كعب"، وذلك لأن الأفق مفتوح؛ وبالتالي المسافات غير محدودة، وقد تعود الفلاح أن يقطع أي مسافة سيرًا على الأقدام. وكان ارتباطه دائمًا بالمكان شيئًا أساسيًّا، كما كان يقول دائمًا "الغربة تُربة"، ولذلك فإنه من الضروري دراسة تأثير الاغتراب على التحولات التي حدثت على الإنسان المصري وأن نحاول الإجابة على أسئلة مثل: ما الذي أدى إليه الاغتراب؟ وما هي آثار هذه الغربة؟ وذلك لأن المصري لصيق بالمكان، وقد يكون هذا سلبًا وقد يكون إيجابًا، فإذا كان سلبًا فعندما يتم دفعه إلى كراهية المكان تكون النتيجة هي أن يسعى إلى تدميره، لكنه إذا أحب المكان بقي وأبدع.

وقد استطاع الإنسان بشكل عام الانتصار على المكان بأن أصبح بإمكانه التنقل بين الأماكن المختلفة في وقت واحد أو في أوقات متباينة، أما مع الزمان فإن الوضع يختلف، وكل محاولات الإنسان تدور حول كيفية الانتصار على الزمان، وإذا أردنا دراسة نظرة الفلاح المصري للزمان فلابد أن يتم ذلك من خلال ما هو عليه وليس ما نتصوره عنه، فهو في النهاية فلاح، وتحكمه في الزراعة يختلف تمامًا عن تحكم الصانع في الصناعة، ومن هنا، لا يمكن مطلقًا عقد مقارنة بين الزارع والصانع لأن لكل منهما محيطًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا مختلفًا، وبالتالي عندما نتلمس التعامل مع الإنسان المصري فإننا نفعل ذلك من خلال ثقافته ومن خلال تعامله وسياقه الذي يوجد فيه، والفلاح المصري ليس المتحكم الوحيد في الزراعة، فهو يرمي البذرة ويتعهدها وينتظر، وقد يأتي الجراد ويقضي على محصوله، وقد تهاجمه دودة أو تغير في المناخ أو فيضان غير محسوب أو عاصفة ... إلى آخره، فهو لا

يتحكم في المنتَج النهائي، لكن ليس معنى ذلك أنه يضع البذرة ويعود إلى البيت وينتظر الفرج من عند الله، بل إنه يواجه أكثر من غيره عوامل الزمن، وذلك لأنه في الزراعة ليس متحكمًا في عنصر الزمن، في حين أن الصانع يتحكم في كل خطوات صناعته، ولا شك أن هذا يحكم تصورات الإنسان المصري للزمن. وعادة، يكون الزمن عدوًّا للإنسان لأن الإنسان يخشى الزمن لأنه يضعفه ويوهنه، ويحاول الفلاح المصري الانتصار على الزمن في حين أنه أضعف من غيره، وفي هذا يختلف عن غيره من الصيادين مثلاً أو من سكان الصحاري، لأنه إذا أفلتت الفريسة من الصياد مثلاً فإنه سوف يبحث عن غيرها، أما إذا التهم الجراد المحصول فماذا بيد الفلاح أن يفعله؟ وبالتالي فإن الزمن بالنسبة للفلاح ليس شيئًا مُسعدًا، وقد دفعه ذلك إلى إنشاد الكثير من المواويل التي تعبر عن هذا المعنى:

الدنيا شينة (سيئة) غدَّارة
تسجي الحلو بعده مرارة
لا فرح ولا حِزن يدوم

وكذلك يقول:
المتغطي بالأيام عريان

إن محيطه المادي وعلاقته المترتبة عليه هي التي تجعله دائمًا لا يعرف بماذا ستأتي له الأيام. وكثير من العناصر المكوِّنة للشخصية المصرية منعكسة على تعبيراتها، وأنماط سلوكها عامة والمرتبطة بالأسرة وعلاقات الصهر والنسب القائمة أساسًا على التعاون لأن جميع الأطراف تحتاج إلى التعاون، ومن تعود أصوله إلى الفلاحين يعرف "الزِّملة" أو المشاركة، بمعنى أن يتم تبادل الأبناء والمعاونين للمساعدة في جمع المحصول سواء كان قطنًا أو غيره. ونتيجة لهذا النوع من العلاقات وُجدت فكرة "الأصل"، وهي فكرة عميقة الجذور في وجداننا وفي سلوكنا، ويقول المثل الشعبي "**الأصل بيْوَنِّس**"، كما يوجد مثل شعبي جميل آخر أحبه وتصعب ترجمته إلى أية لغات من اللغات لأنه خاص جدًّا بالثقافة المصرية، يقول هذا المثل: "**لو خَسّ الأصيل يساوي الناس**"، وبالطبع فإن الأصيل لا ينقص قدره أبدًا، لكن لو حدث ذلك وقل قدره فإنه حتى في هذه الحالة يساوي الناس جميعًا. وهناك مثل شعبي آخر يقول:

إن قابلك اللئيم صُد عنُّه
إن كلمته فرَّجت عنّه
وإن سِبْته (تركته) رَوَّح بهَمّه

ولأن المأثورات الشعبية تشبه الأواني المستطرقة في علاقاتها ببعضها البعض، فسوف نجد في الأغنية الشعبية:

يا ناس أعاتب جليل (قليل) الأصل أجول (أقول) له إيه
ألا جليل الأصل وفّرت العتوبة عليه
ما هو لو كان عنده أصل
كان أصله ردّ عليه

على جانب آخر، هناك كثير من الأفكار التي يوصف بها المصري ومنها أنه مُتَّهم بالسلبية أو بغيرها من الصفات التي تقلل من شأنه، وبالطبع، أود أن أؤكد على أنني لم آتِ إلى هنا لكي أرفع من شأن الشعب المصري والشخصية المصرية، لكنني أعطي فقط مجموعة من العناصر غير الغريبة على حضاراتكم، ويظل السؤال هو: هل يتم استثمار هذه العناصر الإيجابية في معرفتنا للإنسان المصري لكي ننفي عنه ما نصفه به من سلبيات؟ أعتقد أن الإجابة بالنفي، وأنا أتحمل مسئوليتها لأن هذا هو الحزن الذي يلازمني بعد خمسة وأربعين عامًا من التأمل والتعلم، فأنا أشعر بقدر هائل من الحزن لأننا لا نستفيد من نتائج هذا العلم لكي نعرف من نحن ولا كيف يمكن أن نحوِّل ما نرى في تصور البعض أنه سلبي إلى إيجابي. إن الكثيرين يصفون الإنسان المصري بالتحايل والخداع والمكر والفهلوة والكذب وكأنها صفات أصيلة في تكوينه دون مراعاة أن التعميم لا يتم تطبيقه أبدًا في دراسة ثقافات الشعوب. ولا أحد ينظر إلى المصريين في إطار السياق التاريخي الذي مروا به منذ الحضارة المصرية القديمة وحتى وقت قريب حيث مرت على مصر كل قوة كبُرى في العالم وأرادت أن يكون لها موطئ قدم، ولم تكن تعتبر أن قوتها تكتمل ما لم تكن مصر في حوزتها، وقد كان ذلك مع الفرس واليونان والرومان والأتراك وغيرهم.

وكما ذكرنا في سيرة الظاهر بيبرس، إن الشعب المصري ممثلاً في أسوأ نماذجه في شخصية عتمان بن الحِبلة قد تآخى مع حاكمه الذي حقق له العدل، ولا تزال فكرتا المؤاخاة والعدل تمسان

شغاف قلب الإنسان المصري، وتتأكد فكرة المؤاخاة بالمثل الشعبي الذي يقول: **إن كبر ابنك خاويه**، كما ذكرنا من قبل. وفي الريف المصري حتى الآن، يتحدث الأب مع ابنه عن الزواج قبل أن يطلب منه الابن ذلك. ولا تستطيع أية ثقافة أن تُحكم سيطرتها أو تضبط جماعتها إلا إذا أوجدت طرقًا مشروعة لهؤلاء الأفراد لتحقيق رغباتهم المشروعة لأنه إذا لو تم كبت الأفراد انهار المجتمع. ووفق التقاليد الريفية المحافظة فإن الفتاة لا تستطيع أن تقول لأبيها إنها تريد أن تتزوج لأن حياءها يمنعها عن إعلان ذلك، ويدفعها هذا الحياء إلى أن تقول في الأغنية الشعبية:

يا عَمِّتي يا عمتي جولي (قولي) لأبويا كلمة
ده احنا بنات يا عمتي
مش جمح (قمح) يخزننا

يا عمتي يا عمتي جولي لأبويا كلام
ده احنا بنات يا عمتي
مش جمح في الأجران

وهي رسالة جميلة مشروعة في إطار بنية ثقافية معينة، فإذا تم تخزين القمح سوف يصيبه السوس. هذه هي الصورة التي يستحضرها ذهن الفتاة للتعبير عن رغبتها في الزواج. وعادة، ودون الحاجة إلى إعلان، فإن المجتمع هو الذي يبحث للفتاة عن زوج وللفتى عن زوجة وذلك تأكيدًا لفكرة الأسرة التي اكتشف الإنسان المصري أهميتها بعد اكتشاف الزراعة، وهي فكرة عميقة الجذور في الوجدان المصري، قد يحدث تذبذب في هذه الفكرة نتيجة لظروف الحياة وتطورها ولكن أصلها موجود.

ومما يُقال عن الشعب المصري أنه يمتاز بالتحايل، ولكننا عندما نتأمل استخدام هذه الكلمة في السياق الذي تُستخدم فيه نجد أن المصري يقول مثلاً إنه "**يتحايل على المعاش**"، ولا يعني ذلك بالطبع أنه يقوم بالنصب على المعاش ولكنها تعني أنه يدبر أمره. كما يتهم الكثيرون المجتمع المصري بأنه يقلل من شأن المرأة وأن المرأة مظلومة ومقهورة، وقد يصح هذا الكلام في شريحة محددة من المجتمع، لكن في الطبقات الشعبية المرأة هي صاحبة الكلمة الأولى على غير ما يتصوره الكثيرون، وتعمل المرأة كتفها بكتف الرجل منذ منشأ الحضارة المصرية وحتى الآن، أما المرأة التي يتم إخفاؤها

ومداراتها فهي تنتمي إلى فكر آخر وإلى نسق ثقافي واجتماعي لا علاقة له على الإطلاق بالثقافة المصرية الأصيلة. إن كل النساء المصريات يخرجن ويعملن في الحقل بجانب الرجل سافرات لا يضعن إلا ما تقتضيه التقاليد مثل الطرحة أو التربيعة أو الشُقَّة أو العَصبة. وللأسف الشديد، نحن نخلق أشياء ونصدقها ونبني عليها ونتجاهل ما بين أيدينا وما ينفع فيما نريده من نهضة ومن تلاحم يجعل الجماعة تسعى إلى أن تؤكد الحياة وتحافظ عليها، وذلك لأن المصري طوال عمره مؤكد للحياة ومحب لها ومحافظ عليها على عكس ما يتصور الكثيرون ويرددون أننا شعب يحب الغم، وأننا نستكثر على أنفسنا الضحك، وإذا ضحكنا نقول "اللهم اجعله خير"، مع العلم أن هذا ليس هو المقصود على الإطلاق، بل على العكس فإن هذا جزء من حكمة هذه الثقافة المصرية وهو أن الحزن لا يدوم وأن الفرح لا يدوم، وبالتالي فهو يعد الإنسان منذ طفولته بأن يتوقع هذا وذاك، لأنه لا يمكن أن تسير الحياة وردية طوال الوقت، ولكنها تحتوي أيضًا على الكثير من الأشواك والأحزان وأنه لابد من تقبل كليهما. وعندما يفرح الإنسان المصري ويردد "اللهم اجعله خير"، ليس بالضرورة أنه يتوقع الشر أو يتمناه، لكنه يعني أنه يستعد دومًا لمواجهة الأحزان دون أن ينهار، لأنه لو أن المصري قد انهار نتيجة كل ما تعرض له على مدار تاريخه، لكان هذا الشعب قد فني ولكان هذا الوطن قد انتهى. إن ما جعله مستمرًّا إلى الآن على الرغم من كل ما مَرَّ، ويمر به أن هناك أرضًا صلبة خصبة وجذورًا عميقة تحتاج إلى من يرويها ويهذب أغصانها لكي تثمر ثمرًا يبهج الناظرين ويسر القلب وينفع الناس.

محمد زكريا عناني:

هل انتهى الدكتور أحمد مرسي بالفعل من محاضرته؟ إذن، فالدنيا بالفعل "شينة غدارة"، لقد استمتعت بكل هذه الجولة التي اتسمت بالعذوبة والعلم والبساطة في وقت واحد، طوفنا مع المصطلح، والمصطلحات ثقيلة الدم في العادة، لكنها من الدكتور أحمد مرسي مثل الشهد المصفَّى، لقد عشنا مع هذا التداخل بين المصطلحات واستقر بنا الحال إلى مصطلح "المأثورات الشعبية" وانتقلنا بعذوبة وبساطة شديدة لكي ندخل للشخصية المصرية بعيدًا عن الرتابة والروتين والكلمات التقليدية والحماس الطاغي لكي نستمع من حين لآخر لموال أو مثل شعبي لكي نفرق بالفعل بين التعبير الجمعي وبين الحالة الخاصة التي تخرج عن سياق المجتمع، ولنفهم هذه الفروق الدقيقة علميًّا والتي قُدمت بهذا الأسلوب الحي الذي يساعدنا على الدخول في تجسيم للوسط الاجتماعي والواقع المادي ووعي الشخصية بكل هذه الأبعاد. إنني من صميم هذه الأرض، والحديث عن علاقة الأرض بالزراعة بالمستوى الاجتماعي الذي ينتقل إلى مفهوم الاستقرار الذي يصنع الأسرة، كما يصنع تلك الحالة من التساوي بين الرجل والمرأة والتي تمتد جيلاً بعد جيل وقرنًا بعد قرن، هذا الحديث لم أسمعه و لم أقرأه بكل تلك البساطة كما استمعت إليه من الدكتور أحمد مرسي. كم كنت أتمنى أن نتحرك قليلاً لكي

نقول إن هذه التعبيرات البسيطة جسمت الريف المصري كأحلى ما يكون التجسيم، وكانت الإطلالة على التراث الشعبي من خلال ذكر سيرة الظاهر بيبرس تكشف بجلاء عن قيمة هذه السيرة أو الملحمة الشعبية التي فهمنا فحواها من خلال مفهوم التآخي بين عتمان بن الحِبلة والظاهر بيبرس، وتبيَّنا أن وراء هذه السيرة معانيَ ضخمة ليس لها ساحل. كما وردت فكرة صراع الإنسان مع الزمان، هذا الصراع السرمدي والذي ينتهي مع الأسف بهزيمة الإنسان، لكن الإنسان المصري المرتبط بالزراعة يقاوم ويتحايل على معيشته. وقد أبرز الدكتور أحمد مرسي في حديثه أيضًا إعلاء شأن المرأة والتركيز على أصل الإنسان ودوره.

لقد كان منطلق الدكتور أحمد مرسي هو منطلق العشق، فهو عاشق التراث المصري والأدب الشعبي، وكانت النتيجة أنه قضى عمره على مدى ما يقارب من نصف قرن في دراسة الأدب الشعبي، وليس غريبًا أن ينقل إلينا بكل الحب وبكل هذه الرهافة تلك المعلومات الغزيرة والتي جاءت وكأنها عفو الخاطر، مع أنها ثمرة قراءة وإحساس واتصال بالأساتذة وتأمل في الكون والرغبة في أن يفهم ويستوعب؛ وبالتالي تكون النتيجة أنه أحب وعرف كيف ينقل إلينا هذا الحب.

علي جلبي (أستاذ علم الاجتماع بآداب الإسكندرية):

لقد استمتعنا بالمحاضرة وبما جاء فيها من أفكار، واستثارت فينا مجموعة من التساؤلات، فقد بدأ الدكتور أحمد مرسي بالإشارة إلى مجموعة مفاهيم ساعدت في توضيح بعض الالتباس، ولكن على الرغم من هذا فقد أشار إلى مفهومي "الثقافة" و"الحضارة"، وهو يعلم أن هناك التباسًا بين المفهومين، وعندما دخل مفهوم المأثورات الشعبية زاد الالتباس التباسًا، فأرجو أن يساعدنا في أن نستجلي هذا الالتباس. الأمر الآخر أن الدكتور أحمد مرسي قد تحدث عن الشخصية باعتبار أنها نتاج وسط، لكن السؤال المحير الآن هو أن الوسط يمثل بعدًا تاريخيًّا، لكننا نعيش في وسط عالمي أو في وسط العولمة، فإلى أي حد يمكن أن يكون للعولمة تأثير على الشخصية المصرية؟ الأمر الأخير هو أن الدكتور أحمد مرسي طرح سؤالاً محددًا يقول فيه إنه من المهم أن نستثمر العناصر الإيجابية في الشخصية، لكنني أعتقد أن السؤال الأهم وفي ضوء خبرته يمكن له أن يرسم برنامجًا لكيفية استثمار هذه العناصر الإيجابية في الشخصية المصرية.

سعيد حسن زلط:

أتشرف بعرض بعض الملاحظات: تقوم دولة إسرائيل بتزييف التراث والفولكلور والآثار العربية والقبطية والإسلامية، ثم تطبع عليها علامات يهودية تاريخية قديمة بواسطة علماء آثار

متخصصين في ذلك من دول أوروبا، على أن يتم دس هذه الآثار المزيفة في مواقع مختلفة بأنحاء الوطن العربي والإسلامي بواسطة عملاء المخابرات الإسرائيلية والسياح اليهود وغيرهم، والسؤال هو: متى تتم المواجهة الحاسمة لهذا التزييف وسرقة التاريخ العربي والإسلامي والقبطي بواسطة جامعة الدول العربية وكل وزارات الثقافة في الدول العربية والإسلامية وهيئة اليونسكو العالمية ومنظمة الإسيسكو الإسلامية وأيضًا مكتبة الإسكندرية العزيزة والجامعات المصرية والعربية؟ أيضًا، متى يتم صدور قانون حماية الوثائق المصرية الجديد، وتعديل الثغرات الكثيرة بقانون حماية الوثائق المصرية الصادر عام ١٩٩٧ لحماية تراث ووثائق مصر من السرقة والضياع إلى مكتبات أوروبا؟ كذلك، أؤكد على ضرورة اهتمام العالم بمنـــزل أحد من كانوا يحمون التراث المصري والفولكلور وهو المرحوم الدكتور محمد رجب النجار. أيضًا، أتساءل لماذا هذا الاهتمام الكبير بمعارك أبو زيد الهلالي سلامة التونسيّ؟ ألا يوجد تراث ومأثورات شعبية مماثلة له في التنوع في مصر والدول العربية والإسلامية؟ ويجب ألا ننسى في هذا السياق زكريا الحجاوي حامي حمى الفنون الشعبية.

السيد سليمان (مهندس):

بالنسبة للشخصية في الشعوب، فإنها تخضع لعلم النفس الجمعي أو علم النفس التطبيقي، والهدف من دراستها هو معرفتنا لإيجابياتنا وسلبياتنا، كما أنها تساعد الآخر على كيفية التعامل معنا. ومن الناحية الأنثروبولوجية، تساهم في تحليل عناصر الجماعة، ومن مدخل الإدراك والثقافة، تساعد على معرفة رد الفعل عند أية جماعة عند أي مؤثر خارجي. وقد طرح الدكتور أحمد مرسي قضية أن المصري أساسًا فلاح، وهذه قضية قديمة، لأننا لسنا أول شعب يعيش على نهر، ففي الهند عشرات الأنهار وكذلك في الصين وفي أمريكا، وعلى الرغم من ذلك، فإننا أصبحنا عاجزين عن توفير احتياجاتنا من الغذاء والكساء، كما حدث تغير في أنماط المعيشة، ولم يعد الفلاح ينجب فلاحين مثله، بل تغيرت اتجاهاتهم مما يثير سؤالاً عما إذا كانت المهن تُورَّث. إذن، فقضية الأخذ بإكليشيه واعتماده إلى ما لا نهاية، تعتبر تلخيصًا لهذه القضية، لقد طرأت تغيرات كثيرة على الشعب المصري خاصة في العصر الحديث، لكن التغير الديموجرافي الذي طرأ على الشعب المصري غير في الشخصية المصرية، وعندما نرى رد فعل الشعب المصري أمام الحملة الفرنسية على الرغم من أن مصر في هذا الوقت كانت مملوكية متخلفة، لكنها نجحت في طرد الفرنسيين بعد ثلاث سنوات من بدء حملتهم على الرغم من المحاولات العديدة للفرنسيين في إبراز ديمقراطيتهم، ومع ذلك، فقد تقبلت مصر الاحتلال الإنجليزي أكثر من سبعين عامًا على الرغم من كونها كانت أكثر تقدمًا وقت الاحتلال الإنجليزي عما كانت عليه أيام الحملة الفرنسية. ومن هنا، من الممكن القول إنه كلما اتجهت بنية المجتمع نحو التقدم، فإنه من الممكن أن يتقبل المصري الغزو الأجنبي ويتعايش معه. هذا التغير في

شخصية المصري لابد ألا يتم بالاعتماد على إكليشيهات ثابتة، ولكن هناك دراسات متخصصة. ويدرس الأمريكيون بوصفهم القوة الفاعلة في العالم تأثير أحداث معينة على شعوب العالم المختلفة ومدى علاقة ذلك بهم وتأثيره عليهم، وهذه دراسة تقوم على علم النفس التطبيقي الذي يستغل المأثور ليعرف الشخصية بهدف إبراز ما لديها.

محمود بكري (لغوي):

أرجو الإشارة إلى أن هناك مئات من الأمثال الشعبية السلبية، كما أود أن أشير فيما يختص بالزمان والمكان أن المصري لا إحساس عنده بالزمان، أما المكان، فلماذا عندما يغادر المصري بلده يصبح عدوًّا لكل مصري يقابله في الخارج. أما فيما يتعلق بذكر المماليك، فإن المصريين هم الشعب الوحيد الذي اختار العبيد ليكونوا ملوكًا عليهم، وفيما يتعلق بالتماثيل الفرعونية، ففي معابد أبي سمبل يتم تصوير زوجة الفرعون تحت قدميه.

أحمد مرسي:

يبدو أنه يوجد في تكويننا كمثقفين رغبة في إبراز العيوب الصغيرة رغم وجود المميزات الكبيرة، وإذا أخذنا كل ما قلته بعين الاعتبار، فسنجد أنني انتقدت الشعب المصري في مواضع كثيرة تُفهم من بين السطور.

محمد سعد محمد:

إلى أي مدى تأثر تراثنا الشعبي بالثقافات الخارجية؟ ومتى يُطلق على الشيء تراث شعبي؟

عمرو عبد الهادي (طالب في كلية الآداب):

مع ثقتي الشديدة في أصالة المصري، لكن بماذا يفسر الدكتور أحمد مرسي انطباع كثير من دول العالم عن الشخصية المصرية الزائفة وبخاصة انطباع أشقائنا العرب؟ وهل هم محقون في ذم المصري؟

دعاء محفوظ:

هل أصبح للشخصية المصرية في التراث الشعبي رونقها كما كانت قديمًا؟ وإلى أي مدى اختلفت الشخصية المصرية في التراث الشعبي؟ وأخيرًا، ما سبب اختلاف الشخصية المصرية في التراث الشعبي؟

زكريا محمد (لواء بالمعاش):

ما هي الظروف والأسباب التي أدت إلى قول مصطفى كامل: "لو لم أولد مصريًّا لوددت أن أكون مصريًّا"؟

سنية محمود:

الصاحب والأخ مفاهيم عميقة في موروثات مفاهيم الشعب المصري، نرجو توضيح الارتباط بينهما.

متحدث لم يذكر اسمه:

كيف نستطيع تفسير فكرة الآخرين ممن لم يدرسوا التراث ويتعرفوا على طبيعته عن فكرة ارتباط التراث بفرقة رضا واقتصاره على الرقص الشعبي أو حتى الأزياء الشعبية؟ وما هي الخطوات الرئيسية نحو محو تلك الفكرة؟

محمد حسني أنور:

ما هو تأثير العولمة على التراث؟ وما علاقة هبوط الأغنية بالتراث؟

متحدث لم يذكر اسمه:

لماذا لم ينهض فن الموال في عصرنا الحاضر؟

إيمان أحمد:

كيف نعمل على حفظ المأثورات الشعبية من خطر العولمة واتفاقية الملكية الفكرية؟ وأدعو إلى إقامة مركز وطني لجمع التراث الشعبي وتدوينه.

أحمد إبراهيم شلبي (محاسب):

أسأل عن ألف ليلة وليلة كأشهر قصص التراث وكيفية المحافظة عليها وتدوينها.

محمد عبد الوهاب (طالب بكلية الفنون الجميلة):

كيف يمكن التعبير بالمادة عن الرؤية الجماعية؟

هدى حقي (محامية):

بالنسبة للمواويل الشعبية مثل موال أدهم الشرقاوي وعنترة بن شداد وغيرها والتي تحمل الكثير من الخيال الذي يختلط بالقليل من الحقيقة، وعلى ضوء ذلك فماذا يكون تصنيفها؟

أحمد مرسي:

بالنسبة لتعليق الدكتور علي جلبي على الفرق بين الثقافة والحضارة، أقول إنها مشكلة طويلة ومتشعبة لأنه أحيانًا ما يُطلق لفظ "الحضارة" على الجوانب المادية، في حين تكتفي لفظة "الثقافة" بالإشارة إلى الجوانب المعنوية، وهذا هو أحد الفوارق الكبيرة. أما بالنسبة للالتباس حول مفهوم المأثورات الشعبية، أقول إنني لا أعرف حقًّا من أين أتى الالتباس إلا أننا نستخدم الآن مصطلح "المأثورات الشعبية" وأصبح هناك مصطلح جديد في الأدبيات العالمية وهو مصطلح "التراث الثقافي غير المادي" ولم يعد هناك من يستخدم كلمة "فولكلور" لأن لها دلالات ترتبط في بعض الأحيان بأشياء لا تتفق مع العولمة، ومن ناحية أخرى، فإن كثيرًا من الشعوب الإفريقية أصبحت لا تستخدم هذه الكلمة أيضًا لأنها تشير إلى المرحلة الاستعمارية ونظرة المستعمرين إلى هذا الإبداع الشعبي. وأتفق مع الدكتور علي جلبي فيما يختص بأن الشخصية نتاج وسط وهي ذات بُعد تاريخي، وذلك لأن أحد المعالم الرئيسية التي تميز الإنسان بغض النظر عن كونه مزارعًا أو عاملاً أو صانعًا أو صائدًا هو البُعد التاريخي الذي بدونه لا يمكن لإنسان أن تكتمل إنسانيته، وهناك من يعرِّف الإنسان على أنه حيوان له تاريخ وذاكرة، وهذه أمور من الممكن أن تمتد بها المناقشات كثيرًا.

ومن الأفكار التي أثيرت حول العولمة أقول إن هناك خوفًا شديدًا جدًّا من هذا الموضوع ومن سيادة الثقافة الواحدة ومن تحول العالم إلى قرية كونية صغيرة، وأحيانًا يتم التعبير عن ذلك بألفاظ مثل Macdonalisation أو Cocacolisation. والغريب في الأمر أنه على الرغم من كل هذا الاتجاه، لكن هناك اتجاهات أخرى تتحدث عن التنوع الثقافي وتعزيزه وحماية الخصوصيات الثقافية، وأصبحت هناك اتفاقيات دولية تحمي الخصوصية الثقافية والتنوع الثقافي، وأن أكثر المتعولمين لا يستطيعون أن يزعموا على الإطلاق أنه سوف تكون هناك ثقافة واحدة إطلاقًا لأن هذا معناه إفقار للإنسانية، وذلك لأن التنوع الثقافي شأنه شأن التنوع الطبيعي كما أن الطبيعة تغني وتثري بالتنوع الهائل بين أنواع لا حصر لها من النباتات والحيوانات والحشرات فلا يمكن على الإطلاق أن يكون هناك نوع واحد من الثقافات. وأنا شخصيًّا لا أخاف من العولمة، بل إنني أرى أن من أهم جوانبها الإيجابية هي أنها تستحثنا بعد طول رُقاد ونوم واستهانة واستهتار واحتقار لموروثاتنا أن نبدأ في جمعها الجمع العلمي المنظم وصونها، وأظن أننا بدأنا في إطار الجهود الفردية بجمعية أهلية، كما استطعنا منذ

حوالي أسبوعين الحصول على منحة لكي ننشئ أرشيفًا للمأثورات الشعبية المصرية وذلك عن طريق جمعية أهلية، وذلك بعد أن جفت ألسنتنا من الدعوة إلى تنفيذ هذا الأمر، وفي هذا الإطار، أصر مع مجموعة من الزملاء على وضع أرشيف للمأثورات الشعبية المصرية، خاصة أن الاهتمام بهذا المجال يتضاءل، وكما أردد لتلامذتي في الجامعة: علينا أن نجري بأقصى سرعة لكي نظل في أماكننا، لأنني أخشى ما أخشاه أن يضيع منا المكان.

وأود الإشارة أيضًا إلى أن العالم الذي نعيشه الآن لا يتبنى إطار الأحكام العامة بل إن هناك مدارس فكرية عديدة و لم يكن الأمر محض صدفة، وهناك حكيم إفريقي قال عبارة تقشعر لها الأبدان مما جعل الدول الإفريقية تبذل الكثير من الجهد في جمع التراث الشفهي، فقد قال: "عندما يموت راوٍ إفريقي، فكأن مكتبةً قد احترقت". وها نحن في رحاب مكتبة الإسكندرية التي أعيدت ونرجو أن تنشر ضوءًا لأن المكتبة إذا كانت قد احترقت في عصر فقد بُنيت مرة أخرى في عصر آخر، أما البشر الذين يموتون فإنهم لا يعودون. وكثير من الرواة الذي يمثلون تراث أجيال وثقافة وامتدادًا حضاريًّا طويلاً قد ماتوا للأسف الشديد قبل أن نسجل ما لديهم من مكتبات، ومكتباتهم هي الحكايات التي يروونها والصناعات التي يقدمونها.

وحول موضوع إسرائيل وتزييف التراث والملكية الفكرية، فهو جرح قد نكأه السؤال، وفي عام ١٩٧٦ نشرت كتابًا عنوانه الفولكلور والإسرائيليات أنبه فيه إلى ما يحدث من انتهاك، وذلك لأن المسألة ببساطة شديدة هي أن هناك سعيًا لإثبات أن كل أصول الحضارة في هذه المنطقة إنما تعود إلى أصول عبرية قديمة، وبالتالي نكون نحن عالة على هذا التراث اليهودي الممتد. وكنت أتصور في ذلك الوقت أنني أصدم العقل العربي وأجعله يفعل شيئًا، واكتشفت بعد ذلك أن العقل العربي لا تؤثر فيه القنبلة النووية ولا غير النووية. وشخص مثلي يعمل بالكتابة والمحاضرة لا يستطيع إلا أن ينبه وأن يوقظ العقول، والحل هو أن نقوم بإنشاء أرشيف للتراث الشعبي، وأدعو الجميع لمساعدتنا بالضغط الإعلامي والثقافي والمادي لكي نجمع هذا التراث. كذلك، حول المرحوم الدكتور محمد رجب النجار، فقد كان صديقي وأخي، وقد أصدرنا عددًا من مجلة الفنون الشعبية عنه. والخطير فيما يرتبط بالحماية والملكية الفكرية أن الشغل الشاغل للعالم الآن هو حفظ وصون وحماية المعارف الشعبية والموارد الوراثية وتعبيرات الفولكلور أو المأثورات الشعبية لأن هذه الجوانب هي التي تحميها قوانين الملكية الفكرية التي تحمي حق المؤلف والحقوق الأخرى من أجل التوصل إلى اتفاقية لحماية الملكية الفكرية الجمعية في مجال المأثورات الشعبية والمعارف الشعبية لأن الشعوب النامية اكتشفت أن هذا المجال من الممكن أن يسبب مصدرًا هائلاً من مصادر الدخل الاقتصادي والتنمية المستدامة، والغريب

في الأمر أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي تقف دون التوصل إلى اتفاقية أو قانون لحماية الملكية الفكرية في هذه المجالات لأنها مستباحة لها تفعل بها ما تشاء، خاصة فيما يتصل بالموارد الوراثية واستنبات أنواع من الأدوية وغير ذلك. ومنذ عام ٢٠٠٠ وأنا أحضر اجتماعات اللجنة الحكومية الدولية وأدافع مع غيري ممن يمثلون الدول النامية عن حق الفقراء في معارفهم ومأثوراتهم الشعبية ومواردهم الوراثية.

وحول ما ذكره المهندس السيد سليمان عن الإكليشيهات وتغير الشخصية وعدم ثباتها، أقول إنني قد ذكرت تغير الشخصية أكثر من مرة، وإذا كنت قد ذكرت أن المصري في الأساس فلاح، فإن هناك فلاحين في كل أنحاء الدنيا، حتى في الهند والصين، لكن، الفرق الوحيد هو أن الفلاحين في هذه الدول وغيرها لم تغزهم الجيوش الفارسية واليونانية والرومانية والتركية ... إلخ، هناك خصائص مشتركة لا ننكرها بين من يعيشون على ضفاف الأنهار، لكن هناك أيضًا خصائص فارقة، ونتيجة للظروف التاريخية للمنطقة فقد تعاقب على الفلاح المصري الكثير من الحضارات التي تأثر بها وأثرت فيه، وقد استوعبت مصر ثقافات وحضارات أضافت إليها وأخذت منها وعدَّلت من ثقافتها، وقد وصل الإسلام حتى الصين ومع ذلك لم تتحول الصين إلى دولة إسلامية كما حدث مع مصر. وبمناسبة ذكر الصين ومصر، أذكر مقولة للزعيم الصيني الراحل ماوتسي تونج أصبحت تجري على جميع الألسنة وهي: "إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة"، أما الفلاح المصري فإنه يردد مثلاً شعبيًّا هو "**اللي يحبي يجطعها (يقطعها) جبال**" أي أن من يحبو ويستمر في الحبو فسوف يقطع الجبال ولا يمكن أن يظل إنسان يحبو طوال عمره، لأن معنى ذلك أنه لا يسير ولا يقف ولا يقع وأنه مشلول بحبوه، ما أريد قوله هو أن هذا المثل المصري الذي لا يعرفه كثير من المصريين يختلف تمامًا من ناحية المعنى والمضمون والشكل ومن كافة النواحي عن مقولة ماوتسي تونج. وأظن أن الفلاح المصري على الرغم من كل ما مر به قد قطع جبالاً حقًّا، وما يزال يأمل في أن يقطع جبالاً.

وإذا كان البشر جميعًا يتفقون في أنهم يأكلون ويشربون ويتزوجون ويغضبون ويفرحون ويمرضون ويشتكون غدر الزمان ويموتون، لكن، كيفية حدوث كل ذلك هي التي تصنع الفرق بين ثقافة وثقافة وبين شخص وآخر، ومنذ اكتشف الإنسان المصري الزراعة وعرف فكرة الاستقرار ومن ثم الأسرة، أصبح هنا عنصران أساسيان يشكلان شخصيته وسلوكه: الاستقرار والأمان، وهذان العاملان أثـــَّرا في الشخصية المصرية تأثيرًا كبيرًا وأديـــا إلى الكثير من التطور الذي حدث في الشخصية المصرية. ولا توجد شخصية زائفة وشخصية حقيقية، لأن المواقف تفرض على الإنسان ردود أفعاله، ومن الممكن أن أكون في أحد المواقف شهمًا وشجاعًا وفي مواقف أخرى أكون ضعيفًا،

وهذا طبيعي لأنني إنسان، ولذلك، فإنه للحكم على أي إنسان لابد من وضعه في سياقات مختلفة، وبشكل عام، لم يختر الشعب المصري حكامه طوال تاريخه إلا مؤخرًا، فلم ينتخب الشعب المصري عمرو بن العاص ولا الظاهر بيبرس ولا الإسكندر الأكبر ولا غيرهم، وإذا كان البعض يقول إن الشعب المصري ولّى محمد علي باشا فإنني أقول إن من اختاروه كانوا نخبة الشعب وليس الشعب كله، ويا ليت كل من تولى حكم مصر كان مثل محمد علي الذي تمصَّر. ولابد من الإشارة إلى أنه لا يوجد عِرق أو جنس اسمه العِرق المصري أو الجنس المصري، إن المصري هو بوتقة انصهرت فيها ثقافات وحضارات وأفكار ورؤى وهذا هو الذي جعل لهذه البلد طعمًا وجعلها مؤثرة سواء في تاريخها القديم وحتى الآن.

إن مصر مؤثرة على أي مستوى من المستويات، ومهما يحدث فيها من تراجع على المستوى الثقافي أو الاجتماعي فإنها لن تصبح أبدًا من سقط المتاع ولا يمكن تشبيهها بأية دولة صغيرة، إن المشكلة الحقيقية في مصر هي عدم وعي أبنائها بدورها وبتاريخها، ولن يتم هذا الوعي إلا إذا عرفنا أنفسنا ونواقصنا وإيجابياتنا جيدًا، وألا نعلي من إيجابياتنا أكثر من اللازم، ولا شيء ينشأ من فراغ، إن أي سلوكيات طرأت على الشعب المصري ما هي إلا وسيلة للفت انتباه حكامه مثل الطفل الذي إذا انشغل عنه أبواه فإنه يقوم بأي تصرف لجذب انتباههما، هناك قوانين تتحكم في حركة الناس، فأرجو أن نترفق بأنفسنا لكن على ألا ندللها وألا نمارس عليها القسوة أكثر من اللازم، لابد أن تكون القسوة منبعها الرغبة الحقيقية في تغيير أنفسنا وحتى نكون أفضل، وللأسف يظهر في الشعب المصري عادة أسوأ ما فيه مما يعيدنا مرة أخرى إلى ما ذكرناه عن السياق والمحيط ومدى تأثيرهما على الإنسان.

وأود أن أختتم كلمتي بمواويل شعبية ربما لا يعرفها الكثيرون وأقولها تحية لوجودي في مكتبة الإسكندرية:

السبع له طبع والضبع له طبع والديب (الذئب) له طبع والكلب له طبع والبخيل له طبع والكريم له طبع،
السبع له طبع لو مُلك الخلا يبرح،
والضبع له طبع لو دخل الظلام يفرح،
والديب له طبع لو مُلك الغنم يجرح،

والكلب له طبع ما يبات إلا في أنجس المطرح،
والبخيل له طبع لو جالوا (جاء له) الضيوف وِشّه يتصبغ ويجول (يقول) جيتونا ليه سوِّدْتوا علينا المطرح
أما الكريم له طبع لو جالوا الضيوف يفرح ويجول أهلاً شرفتونا ونورتوا علينا المطرح

عويل وجال (قال) للأصيل عندي تيجي دام
جاله (قال له) أي نعم أخدمك لو جارت الأيام
ندر علي يا ناس لو السعد جالي (جاء لي) خدام
لأعمل وليمة تكفي سائر الأحباب
وأروح غرب البلد وأتلف في الأكفان
ولا يجولوش (ولا يقولوا) الأصيل عند العويل خدام

حُطوا الحب في جمال الورد واوعوا له
وادوه لناس طيبين الأصل يوعوا له
والله يا عم لو مات ظريف المعاني جبل (قبل) ما أطوله
لأسأل على تربته وأتمد في طوله
وإن جُم الملكين يسألوا أنا أرد مسئوله
وأجول ديره (وأقول حوِّلوا) حسابه عليَّه ولا عدتوش تروحوا له

محمد زكريا عناني:

نشكر الدكتور أحمد مرسي على هذه الأمسية الجميلة وإلى لقاء قادم في منتدى الحوار.